مدينة الخرطوم

مضى على الخرطوم ست عشرة سنة كانت فيها قاعاً صفصفاً وطللاً دارساً بالياً ينعق في خرائبها البوم لا يعلم عنها العالم المتمدن شيئاً ولا يذكر اسمها الاَّ مقروناً بما وقع فيها من الحوادث المشومة حين سُفك فيها دم البطل الانكليزي الجنرال غوردون. فتحها المهدي فذبح رجالها وسبى نساءها ودكَّ ابنيتها ونقل حجارتها وما سلم من رياشها الى ام درمان فامست خرباً تكتنفها الرمال المحرقة ولم يبقَ فيها سوى بعض جدران قليلة من سراي غوردون شاهدة على ما كانت عليهِ من العزّ والمنعة وقد بقيت رغماً عن اوامر المهدي وتشديدهِ بمحو كل اثر للحكومة السابقة فكأن القضاء ابقاها اثراً لدم بطل السودان الذي سفك فيها يستنهض الامم لردّها الى مجدها السابق ومحو آثار المهدوية. هكذا بقيت الخرطوم ست عشرة سنة حتى فتحها الجيش المصري بقيادة كتشنر باشا سنة ١٨٩٨

مررت بين خرائبها المتبعثرة ومشيت على رمالها المحرقة في اواخر سنة ٩٨ فلم اصدّق ان الحكومة تنوي جعلها عاصمة السودان واعادتها الى عزّها السابق بل الى اعظم منهُ فتجبي العظام وهي رميم ولم يدر في خلدي ان وحشتها ستصبح انساً ورمالها المحرقة جنات يجري من تحتها النيل فيرويها ويحييها وخرباتها الدارسة قصوراً فخيمة فيقصدها من المغرب والمشرق التجار واصحاب الاموال. ولم يخطر لي ببال انني ارى فيها بعد عشرات من السنين عقائل واوانس غربيات وشرقيات يسكنَّ قصورها ويخطرن بازيائهن في شوارعها ولكن حدث ذلك كلهُ في ثلاث سنوات فذكرني بقصص خاتم المارد. والمال قوة لا تبارى اذا عضدتهُ اصالة الرأي وثبات العزيمة

لا يتوهمنَّ القارئ انني اصف لهُ مدينة عظيمة كالقاهرة او الاسكندرية كلاَّ لان الخرطوم لا تزال في بداءتها وكل ما فيها الآن من الابنية والجنائن والتجار وارباب الاموال قليل لكنهُ يدل على انها آخذة في النموان نموها سيكون سريعاً

من يأتي الخرطوم في القطار يرى وهو على ستة اميال منها نقطة بيضاء في الافق تكبر رويداً رويداً حتى يصل الحلفاية فيحققها فيراها بناء فخيماً جميلاً ذا ثلاثة ادوار امامهُ من جهة النيل شجرات باسقات تظلل اكثر من مئة نفس وتحيط بهِ من الجهات الثلاث الاخرى حديقة غناء من شجر الفلفل والازهار البديعة الاشكال وتخر امامهُ بين الحلفاية والخرطوم وام درمان البواخر الحربية والتجارية. هذا البناء سراي الخرطوم ومسكن حاكم السودان العام وعند

ما يخر النيل عابرًا الى الخرطوم تستوقف نظرهُ ابنية اخرى مبنية بالقرميد الاحمر على الطراز الاوربي منها كبير ومنها صغير تمتدُّ على شاطيء النيل عن يمين السراي ويسارها وتكتنفها اشجار النخيل الباسقة من كل جانب — منظر يشرح الخاطر ويسرّ القلب . فعن يسار السراي مساكن نائب الحاكم العام وكثيرين من الضباط الانكليز فنادي الضباط الانكليز فنادي الضباط المصريين (لم يتم بناؤهُ) فالاسبتالية العسكرية (لم يتم بناؤها) وعلى بعد الف متر منها انجم واعظم بناء في الخرطوم بل قد لا يكون نظيرهُ في القاهرة في اتساعهِ وهو كلية غوردون التي سيكون لها شأن كبير في مستقبل السودان وعلى مقربة منها ثكنات العساكر الانكليزية

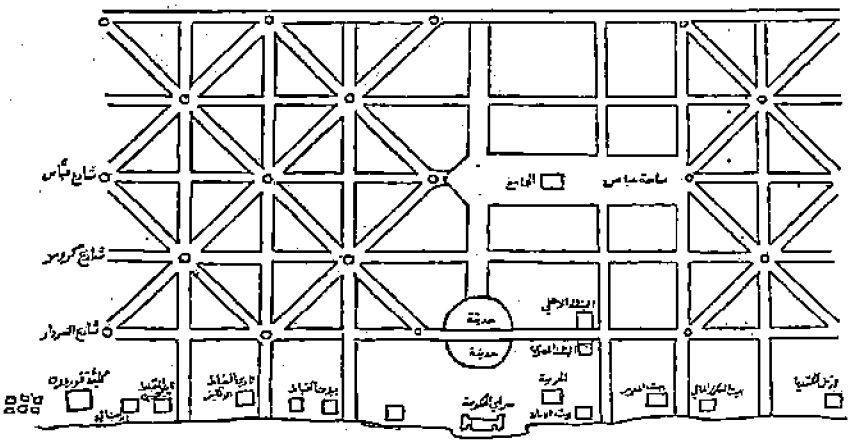

رسم شوارع الخرطوم

وعن اليمين دار الحربية وهي من اجمل ابنية الخرطوم لا يفوقها في الكبر والفخامة الاَّ كلية غوردون وفيها الآن جميع دوائر الحكومة . وعن يمينها واقرب منها الى النيل بيت الامانة (لم يتم بناؤهُ) فبيت مدير الخرطوم فبيت سكرتير السودان المالي فنزل (هوتيل) الخرطوم وكل هذه الابنية مبنية على الشاطيء الغربي من البحر الازرق من القرميد المشوي الاحمر وهي جميلة متقنة البناء حسنة الوضع طيبة الهواء

واجمل منظر لهذه الابنية شاهدتهُ من الجهة المقابلة على شاطيء النيل الشرقي في الحلفاية حيث رأيتها امامي صفًّا واحدًا فاستوقفت بصري مدة كثر فيها اعجابي بها ونظرت اليها لِلاَّ من ذلك المكان نفسهِ فشاهدت انوارها منعكسة في مياه النيل تتلألأ على سطحهِ والنيل ساكن هادئ كأنهُ ابى الحركة فقلت سبحان مغير الاحوال

اما شوارع المدينة واسواقها فقد خُطّطت في اول سنة ١٨٩٩ ومن ذلك الحين والبناء قائم فيها على قدم وساق خصوصاً في شارع عباس وشارع كروص حيث قد تمّ بناء اكثر الابنية واجملها ومعظمها يخص الضباط الوطنيين ومستخدمي الحكومة واغنياء تجار السودان

اما طول الشوارع وسعتها واستقامتها فحدث عنها ولا حرج فتمر في الشارع منها ست مركبات جنباً لجنب بين الرصيفين. وكل الشوارع التي قامت فيها الابنية نظيفة واهتمام الحكومة شديد بتنفيذ كل وسائل النظافة في كل احيائها

اما تجارتها ففي تقدم وقد اقيم فيها بناءان جميلان للبنك الاهلي والبنك المصري يدلك ذلك على ما لارباب الاموال من الآمال في مستقبل السودان عموماً والخرطوم خصوصاً . ولا انسى جامع الخرطوم الذي يكاد يتم بناؤهُ في ساحة واسعة في قلب المدينة فقد وقفت النظر اليهِ مدة متعجباً بجمالهِ وفخامة بنائهِ . ويحيط بالخرطوم من الجهة الجنوبية والغربية على شكل نصف دائرة ثكنات الجيش المصري وكلها في احسن المواقع الطيبة الهواء

وهواء الخرطوم جيد ويشتدُّ فيها الحرّ بين ابريل واكتوبر وكثيراً ما تثور فيها ريح السموم في الفصل المذكور فترفع الرمال الى طبقات الجوّ وتغطي المدينة بطبقة كثيفة من الغبار فتأوي الناس حينئذٍ الى مخادعها وتقفل الابواب والنوافذ لكن الغبار يدخل والابواب موصدة والنوافذ مقفلة ويملأُ المخادع والاسرة . وحين تهدأُ الريح يرى الانسان منزلهُ اشبه شيء بمطحنة على كل شيء فيهِ طبقة من الغبار كثيفة

هذه هي الخرطوم الآن فكيف تصير بعد عشرين عاماً ذلك في علم العزيز الحكيم

احد قراء المقتطف

شباننا والعمل

بحثٌ يظلُّ وان تقادمَ عهدهُ ابداً طلياً في الشفاهِ جديدا
ويدوم ذو العقل السليم مجرَّدًا للنفع يطلبُ ما أُعيدَ مزيدا

سبق لي أن أثبتُّ في المجلد الثامن عشر من المقتطف مقالةً بهذا العنوان نفسهِ عرَّبتُها عن جريدةٍ اميركيةٍ وكان لها احسن وقعٍ عند كثيرين من الشبان . والآن رأيتُ ان أُضيف اليها مقالةً أُخرى ضمَّنتُها ما املاهُ عليَّ الاختبار ونبَّهني اليهِ كثيرون ممَّن عنوا بهذا الموضوع الخطير والبحث الجليل واذا صحَّ ما ارتأيتهُ فيها